المناسبات في القرآن

المحاضرة على اليوتيوب
https://youtu.be/tSYfUu5U7uM

مقدمة

من الموضوعات المهمة في مباحث علوم القرآن موضوع المناسبة القرآنية أو التناسب القرآني، وقد كتبت مجموعة من المؤلفات والبحوث والدراسات عن ذلك خصوصاً في الآونة الأخيرة، وتأتي هذه الأهمية في أن هذا التناسب يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالإعجاز القرآني وبجمال أسلوبه وبيانه، ونظم وحلاوة تراكيبه؛ فالارتباط بين معانيه والتناسق والانسجام بين آياته وإتقان ترتيبها يمثل أحد وجوه الإعجاز التي لا يحظى بها كتاب غيره على الإطلاق، مع أن ترتيب القرآن ليس ترتيباً زمانياً ولا موضوعياً بل هو مرتب وفق طريقة خاصة به لا تماثل أي ترتيب آخر، بل إن التناسب والانسجام صفة ذاتية من صفات القرآن التي يقوم عليها إعجازه وجماله وبدائعه التي لا حدود لها، والذي يندفع معه أي نحو من الاختلاف والاضطراب والتضاد؛ مما يجعل كلام القرآن كالبناء المحكم، وهو تعبير عن مستوى عظمة وسمو هذا القرآن الكريم.

وكما يقول الزرقاني: "إن القرآن تقرؤه من أوله إلى آخره، فإذا هو محكم السرد، دقيق السبك، متين الأسلوب، قوي الاتصال، آخذٌ بعضه برقاب بعض في سوره وآياته وجمله، يجري دم الإعجاز فيه كله من ألفه إلى يائه، كأنه سبيكةٌ واحدةٌ ولا يكاد يوجد بين أجزائه تفكك ولا تخاذل، كأنه حلقةٌ مفرغة، أو كأنه سمطٌ وحيد وعقدٌ فريد يأخذ بالأبصار، نظمت حروفه وكلماته، ونسقت جمله وآياته، وجاء آخره مساوقاً لأوله، وبدا أوله مؤاتيا لآخره"(١).

وسوف يأتي أن شاء الله في بحوث الإعجاز القرآني في المرحلة القادمة كيف أن النظم يساهم في بنية وتشكيل هذا الإعجاز مضافاً للإعجاز البياني القائم على الفصاحة والبلاغة.

---

(١) مناهل العرفان في علوم القرآن، محمد عبد العظيم الزُّرْقاني، ج ١ ص ٦٠.

وفي هذه المرحلة وفي هذا الموضوع سوف نقتصر على جهتين فيه، الأولى: بيان مفهوم المناسبة والتناسب مع بيان أهم فوائد ذلك، والثانية: في بيان أنواع التناسب في القرآن، وذلك لأننا في هذه المرحلة نريد أن نتعرف بنحو مختصر على أهم مباحث علوم القرآن دون الدخول في التفاصيل الجزئية الكثيرة التي محلها في بعض الكتب والدراسات الخاصة.

أولا: مفهوم المناسبة والفائدة منها

المعنى اللغوي للمناسبة

المناسبات جمع مناسبة، مصدر من "**ناسب**"، وهو من الجذر الثلاثي "**نسب**"، قال ابن فارس: " النون والسين والباء كلمة واحدة قياسها: اتصال شيءٍ بشيء، ومنه النَّسب سُمِّي لاتصاله وللاتصال به"[١]. فالمعنى الأصلي لكلمة النسب هو اتصال وارتباط شيء بآخر، فاذا اتصل شيء بآخر باي نحو من الأسباب تكون عندئذ بينها مناسبة.

وقد استعملت أيضاً في اللغة بمعنى المقاربة ومعنى المشاكلة وبمعنى الملاءمة[٢]. وكل المعاني ترجع للأصل الأول الذي ذكره ابن فارس.

المعنى الاصطلاحي للمناسبة

في اصطلاح المفسرين: عرفت المناسبة بأنها: "**ارتباط آي القرآن بعضها ببعض حتى تكون كالكلمة الواحدة متسقة المعاني منتظمة المباني**"[٣].

وفي تعريف آخر: "**وجه الارتباط بين الجملة، والجملة في الآية الواحدة، أو بين الآية والآية في الآيات المتعددة، أو بين السورة والسورة**"[٤].

---

(١) معجم مقاييس اللغة، ابن فارس، ج ٥ ص ٤٢٣.

(٢) انظر: تاح العروس، الزبيدي، ج٢، ص٤٣٠. وانظر: ما نقله السيوطي عن أهل اللغة، الإتقان في علوم القرآن، ج٣، ص٣٧١. وانظر الموسوعة الكويتية، ج٣٩، ص٦٠. لم أعثر على مصدر من المعاجم اللغوية يفيد أن معناها الملاءمة، لكن الأصوليون ذكروا أن معناها في اللغة: الملاءمة والموافقة.

(٣) البرهان في علوم القرآن، الزركشي، ج١، ص٣٦.

(٤) مناع القطان، محاضرات في علوم القرآن، ص٦٩.

وفي تعريف ثالث: "**الرابطة بين شيئين بأي وجه من الوجوه، وفي كتاب الله تعني ارتباط السورة بما قبلها وما بعدها، وفي الآيات تعني وجه الارتباط في كل آية بما قبلها وما بعدها**"(١).

فالمناسبة في اصطلاح علماء التفسير تمثل بيان وجه الارتباط أو العلة التي ربطت الآيات القرآنية فيما بينها. أو قل هي بيان اللطائف القرآنية التي أودعها الله تعالى في ترتيب الآيات في القرآن. والمفسر يسعى لكشف وبيان تلك الوجوه والعلل واللطائف الموجودة في ترتيب جمل القرآن وآياته.

أهمية وفائدة بيان المناسبة القرآنية

البحث في المناسبات هو من المباحث المهمة كما أشرنا في المقدمة، وقد نبه إلى أهمية ذلك مجموعة من العلماء أبرزهم الفخر الرازي صاحب التفسير الكبير، معلقاً على قوله تعالى: (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤدُّواْ الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِالْعَدْلِ)، قال: "**أن الله "تعالى ذكر الأمر بالأمانة أولاً، ثم بعده ذكر الأمر بالحكم بالحق، فما أحسن هذا الترتيب، لأن أكثر لطائف القرآن مودعة في الترتيبات والروابط**"(٢).

ولو أردنا معرفة فائدة المناسبات وبيان الارتباط بين جمل القرآن وآياته؛ فيمكن تصور مجموعة من الفوائد، وقد أشار لعدد منها بعض العلماء:

قال الزركشي: "واعلم أن المناسبة علم شريف تحزر به العقول ويعرف به قدر القائل فيما يقول...وفائدته جعل أجزاء الكلام بعضها آخذاً بأعناق بعض، فيقوى بذلك الارتباط ويصير التأليف حاله حال البناء المحكم المتلائم الأجزاء... وقال بعض الأئمة من محاسن الكلام أن يرتبط بعضه ببعض لئلا يكون منقطعاً. وهذا النوع يهمله بعض المفسرين أو كثير منهم وفوائده غزيرة"(٣).

---

(١) مباحث في التفسير الموضوعي، د. مصطفى مسلم، ص٥٨.

(٢) تفسير الرازي، فخر الدين الرازي، ج ١٠ ص ١٤٠.

(٣) البرهان في علوم القرآن، ج١، ص٣٦.

وقال البقاعي: "وبهذا العلم–علم المناسبات– يُرسّخ الإيمان في القلب ويتمكن من اللب؛ وذلك أنه يكشف أن للإعجاز طريقتين، إحداهما نظم كل جملة على حيالها بحسب الترتيب؛ والثانية: نظمها مع تاليتها بالنظر إلى الترتيب، والأول أقرب تناولاً وأسهل ذوقاً؛ فإن كل من سمع القرآن من ذكي وغبي يهتزُّ لمعانيه وتحصل له عند سماعه روعة بنشاط مع انبساط لا تحصل عند سماع غيره، ثم إذا عبر الفطن من ذلك إلى تأمُّل ربط كل جملة بما تلتْه وما تلاها خفي عليه وجه ذلك، ورأى أن الجمل متباعدة الأغراض متنائية المقاصد، فظن أنها متنافرة، فحصل له من القبض والكرب أضعاف ما حصل له بالسماع من الهزّ والبسط، ربما شككه ذلك وزلزل إيمانه، فإذا استعان بالله وأدام الطَّرْقَ لباب الفرج بإنعام التأمل وإظهار العجز والوقوف بأنه في الذروة من إحكام الربط كما كان في الأوج من حسن المعنى، فانفتح له ذلك الباب، ولاحَتْ له من ورائه بوارق أنوار تلك الأسرار، رَقَصَ الفكر منه طرباً وشاط لعظمة ذلك جنانُه، ورسخ من غير مرية إيمانُه[1].

ويمكن اختصار الفائدة بما يلي:

١– أن الكشف عن المناسبات يرسخ الإيمان في القلب ويزيل الشك منه؛ نتيجة معرفة دقة النظم وإحكام الترتيب التي تؤدي زيادة عظمة القرآن في النفوس مع عظمة قائل هذا القرآن وسموه وارتفاع شأنه جل وعلا.

٢ –بلا شك بأن الاطلاع على علل ارتباط الآيات وتناسبها سيؤدي حتماً إلى فهم معنى الآيات والوقوف على المعنى المقصود منها، خصوصاً حينما تحتمل الآيات أكثر من معنى، وقد يتضح ذلك في بعض التطبيقات اللاحقة.

٣–يمكن التعرف من خلال المناسبات على أسرار وعلل وحكم التشريعات الإلهية، وقد مثلوا لذلك في قوله تعالى: (قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم) [2] فإن معرفة المناسبة بين الأمر بغض البصر وحفظ الفروج يؤدي إلى معرفة التلازم

---

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، البقاعي، مقدمة المؤلف، ج١، ص٨. طبعة دار الكتب العلمية، بيروت.
(٢) النور: ٣٠.

بينهما؛ فحفظ الفروج من أهم وسائله غض البصر، ولهذا لا تتحقق زكاة النفس وطهارتها مع إطلاق الحرية للبصر.

اعتراض على المناسبات

هناك بعض العلماء سجل اعتراضاً على المناسبات، وقالوا إن في ذلك تكلفاً وتعسفاً، وسبب ذلك أن الآيات القرآنية إنما نزلت وفق وقائع وحوادث معينة، وفي القرآن لم تكن حسب نزولها حتى تكن هناك مناسبة فيما بينها، بل هي موزعة في الكتاب ومتفرقة.

وأبرز المعترضين هو الشوكاني في تفسيره فتح القدير، قال: " إن كثيرا من المفسرين جاءوا بعلم متكلف، وخاضوا في بحر لم يكلفوا سباحته، واستغرقوا أوقاتهم في فن لا يعود عليهم بفائدة، بل أوقعوا أنفسهم في التكلم بمحض الرأي المنهي عنه في الأمور المتعلقة بكتاب الله سبحانه، وذلك أنهم أرادوا أن يذكروا المناسبة بين الآيات القرآنية المسرودة على هذا الترتيب الموجود في المصاحف فجاءوا بتكلفات وتعسفات يتبرأ منها الإنصاف، ويتنزه عنها كلام البلغاء فضلا عن كلام الرب سبحانه، حتى أفردوا ذلك بالتصنيف، وجعلوه المقصد الأهم من التأليف، كما فعله البقاعي في تفسيره ومن تقدمه، وإن هذا لمن أعجب ما يسمعه من يعرف أن هذا القرآن ما زال ينزل مفرقا على حسب الحوادث المقتضية لنزوله منذ نزول الوحي على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى أن قبضه الله عز وجل إليه، وكل عاقل فضلا عن عالم لا يشك أن هذه الحوادث المقتضية نزول القرآن متخالفة باعتبار نفسها، بل قد تكون متناقضة كتحريم أمر كان حلالا، وتحليل أمر كان حراما، وإثبات أمر لشخص أو أشخاص يناقض ما كان قد ثبت لهم قبله، وتارة يكون الكلام مع المسلمين، وتارة مع الكافرين، وتارة مع من مضي، وتارة مع من حضر، وحينا في عبادة، وحينا في معاملة... فكيف يطلب العاقل المناسبة بين الضب والنون والماء والنار والملاح والحادي[1]، وهل هذا إلا من فتح أبواب الشك وتوسيع دائرة الريب على من في قلبه مرض"[2].

---

(١) الضب حيوان معروف، والنون الحوت، والملاح: المرأة المليحة الحسناء المتزينة، والحادي المرأة التي اعتزلت الزينة. وهذا جاء في أحد أبيات الشعر، وهو كناية عن استحالة اجتماع الأضداد.

(٢) فتح القدير، الشوكاني، ج ١ ص ٧٢-٧٣.

ومن المعترضين أيضاً الشيخ عز الدين بن عبد السلام، قال: "المناسبة علم حسن ولكن يشترط في حسن ارتباط الكلام أن يقع في أمر متحد مرتبط أوله بآخره فإن وقع على أسباب مختلفة لم يشترط فيه ارتباط أحدهما بالآخر... ومن ربط ذلك فهو متكلف بما لا يقدر عليه إلا برباط ركيك يصان عنه حسن الحديث فضلا عن أحسنه فإن القرآن نزل في نيف وعشرين سنة في أحكام مختلفة ولأسباب مختلفة وما كان كذلك لا يتأتى ربط بعضه ببعض إذ لا يحسن أن يرتبط تصرف الإله في خلقه وأحكامه بعضها ببعض مع اختلاف العلل والأسباب كتصرف الملوك والحكام والمفتين وتصرف الإنسان نفسه بأمور متوافقة ومتخالفة ومتضادة وليس لأحد أن يطلب ربط بعض تلك التصرفات مع بعض مع اختلافها في نفسها واختلاف أوقاتها"[1].

جواب الاعتراض

أجاب الزركشي عن هذه الإشكالية نقلاً عن بعض مشايخه، قال: "قد وهم من قال: لا يطلب للآية الكريمة مناسبة؛ لأنها على حسب الوقائع المتفرقة؛ وفصل الخطاب: أنها على حسب الوقائع تنزيلاً وعلى حسب الحكمة ترتيباً؛ فالمصحف كالصحف الكريمة على وفق ما في الكتاب المكنون مرتبة سوره كلها وآياته بالتوقيف"[2].

وتوضيح كلامه: أن الفصل في هذه القضية أن نقول أن الآيات في القرآن وإن نزلت متفرقة حسب الوقائع لكن هذا لا يمنع أن تكون مرتبة حسب الحكم (من الحكمة) لأن الله تعالى هو الذي أمر بترتيبها وفق الكتاب المكنون الذي سبق هذا الكتاب النازل على النبي (ص).

طبعاً هذا الكلام نحن نقبله ونعترف به، فإن آيات القرآن وإن كانت متفرقة حسب النزول وحسب الوقائع والحوادث، لكن النبي (ص) إنما عين مكانها في القرآن بأمر إلهي، فهي توقيفية كما مر ذلك في بحث جمع القرآن، ولهذا لا يأتي هذا الإشكال.

---

(١) البرهان في علوم القرآن، الزركشي، ج١، ص٣٧.

(٢) المصدر نفسه.